المبحث الثاني

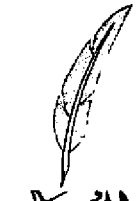

الاتهام الأول

زعم المستشرق «تنمان» فى كتابه المختصر فى تاريخ الفلسفة: «أن كتاب المسلمين المقدس يعوق النظر العقلى الحر، وأن حزب السنة يستمسك بالنصوص»[١].

ويعلق الشيخ مصطفى عبد الرازق أول من أرخ للفلسفة الإسلامية من المصريين والباحث عن جذور هذه الفلسفة والمدافع عن كيانها وأصالتها بقوله فى كتابه التمهيد: «إن قول تنمان هذا يمكن أن يكون تعبيرا عن رأى مؤرخى الفلسفة الغربيين ونظرتهم للفلسفة الإسلامية فى بداية القرن التاسع عشر؛ ذلك أن بروكر الألمانى يعد أبا تاريخ الفلسفة وتنمان خليفته كما يقول كوزان»[٢].

وللأسف تابع معظم المستشرقين تنمان فى هذا الرأى فزعم ريان «أن الإسلام لا يشجع على العلم والفلسفة والبحث الحر بل هو عائق لها»[٣].

وكذلك نجد المستشرق جوتييه يسايرهم فى هذا الافتراء فيقول: «هذه هى عقلية الدين الإسلامى وروحه، فى حقيقتها أو دقائقها، ما ظهر منها وما بطن، هو دين سام بحت، مفرق وموحد بأضيق المعانى وغير عقلى ولا يتفق والتفكير الحر»[٤].

وعندما كتب هؤلاء المستشرقون فى تاريخ الفلسفة العام حاولوا تجاهل الفكر الإسلامى وأسقطوه من سلسلة الفكر الإنسانى وأشاعوا أن الإسلام يعوق النظر الحر وأن السنة تتمسك بالنص ولا تسمح للعقل أن ينظر ولا للفكر أن يجتهد أو يبدع. والنتيجة المترتبة على ذلك هى أن المسلمين لم يكن لديهم فكر فلسفى وحتى هؤلاء المستشرقين الذين أرخوا للفلسفة الإسلامية مثل مونك فى مختصره عن

---

(١) انظر تمهيد تاريخ الفلسفة الإسلامية، الشيخ مصطفى عبد الرازق، ط النهضة، ١٩٤٤م، ص٥.

(٢) المرجع السابق، ص٤.

(٣) المرجع السابق، ص١٤.

(٤) جوتيه، المدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية، ترجمة محمد يوسف موسى، ص١٧٦.

الفلاسفة العرب واليهود[1]. ومن اسم الكتاب يظهر بوضوح إهماله للفكر الإسلامى وحقده عليه وكذلك جاءت محاولة دى بور فى كتابه «تاريخ الفلسفة فى الإسلام»[2] متمشية مع الاتجاه العام للمستشرقين واجتهادهم، فى بيان إعاقة الإسلام للفكر والنظر العقلى، وكان كل اهتمامهم مركزًا على الفلاسفة المسلمين الذين تأثروا بالفلسفة اليونانية كأن العقلية العربية المسلمة لم تنجب إلا هؤلاء وتناسوا أو أهملوا شخصيات هامة فى الفكر الإسلامى كان لها قدرها وأصالتها الإسلامية بل وفلسفتها العقلية، وأصبح الأمر عندهم ليس مجرد تاريخ للفلسفة ولا للفلاسفة بل أخطر من ذلك بكثير هو محاولتهم سلب الإسلام كل قيمة إيجابية بزعمهم أنه يعوق النظر الحر، وبالتالى يشيعون عنه أنه يحول دون أى تقدم علمى ورقى إنسانى.

يقول الدكتور محمود زقزوق فى كتابه الاستشراق: «لست أدرى كيف يبيح المستشرقون لأنفسهم إطلاق هذه المزاعم والعالم كله لم يعرف دينًا من الأديان يعلى من شأن العقل مثل الإسلام والقرآن الكريم شاهد على ذلك»[3].

ويؤكد هذا المعنى الأستاذ الدكتور أبو الوفا التفتازانى[4] فى قوله: «لقد أفسح القرآن الكريم مجالاً للنظر العقلى الاستدلالى فى العقائد والبحث الاستقرائى فى الكون».

وإنى أتساءل كيف يمكن للمستشرقين أن يفتروا هذه الافتراءات على الإسلام ويشيعون أن القرآن يختصم العقل والفكر والنظر والتبصر وأن السنة النبوية تلتزم بالنص دون العقل؟ هل يمكن أن نفهم القرآن الكريم كلام الله وندرك معناه دون أن نستعمل عقولنا؟ أنستطيع أن نلتزم النص دون تعقل أو نظر وتدبر منا؟.

---

(1) Munk, Melanges de phelosophile jeuve et arabe Paris, 1857.

(٢) دى بور، تاريخ الفلسفة فى الإسلام، ترجمة د. محمد عبد الهادى أبو ريدة.

(٣) الدكتور محمود زقزوق، الاستشراق، ص١١١.

(٤) الدكتور أبو الوفا التفتازانى، واصل بن عطاء حياته ومصنفاته، ص٣٩.

الحق أن الإسلام ما جاء إلا ليعتق الفكر الإنسانى من رقه ويحل العقل من قيده، ويخرج الإنسان من ظلمات الجهل إلى نور البصر والبصيرة.

يقول الأستاذ الدكتور سليمان دنيا فى كتابه «التفكير الفلسفى الإسلامى»: «ألا فليقرأ تنمان القرآن، وليمسك قلمًا وقرطاسًا ثم ليحصى عدد مرات ذكر العقل فى القرآن مصحوبًا تارة بالثناء والتقدير ومأمورًا تارات أخرى بالبحث والنظر والتفكير، ثم ليقل لنا ماذا يستفاد من ذكر العقل مصحوبًا بالشكر ومأمورًا بالبحث والنظر والتفكير، مرات ومرات ومرات؟»[1].

لقد أحصينا نحن عدد المرات التى جاء فيها لفظ عقل وتعقلون فى القرآن فوجدناها جاءت فى تسعة وأربعين موضعًا، وكذلك جاء لفظ فكر ويتفكرون فى ثمانية عشر موضعًا وكلها جاءت تأمر بالتعقل والتفكر وتحث عليهما مثال ذلك قوله عز وجل: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾ [يوسف]. وقوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝١٧﴾ [الحديد]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١﴾ [الحشر]، وقال كذلك: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ۝٢٦٦﴾ [البقرة].

فهذه الآيات وغيرها الكثير إنما تؤكد حرص الإسلام على أن يتحلى الناس بالعقل، وأن يلتزموا بالفكر حتى يتبين لهم الحق، فالتنبيه واضح على ضرورة التعقل والتفكر ولا يمكن أن يقال بعد ذلك أن القرآن الكتاب المقدس للمسلمين يعوق النظر الحر، كما زعم تنمان، مما جعل الدكتور سليمان دنيا يعلق على ذلك بقوله: «أيستفاد منه أن القرآن يعوق النظر العقلى الحر أم يستفاد منه شىء آخر». إن الجواب على ذلك رهن بذكاء تنمان؟».

إن الحقيقة تفرض نفسها وتؤكد ذاتها ولا يضيرها قول كائن من كان، والقرآن بكلامه هو دعوة صريحة للعقل فى أن ينظر ويتعقل حتى أن لفظة آية التى منها تكونت سور القرآن إنما معناها حجة وبرهان، أفيمكن بعد ذلك أن يقال أن

---

(١) الدكتور سليمان دنيا، التفكير الفلسفى الإسلامى، ص٣٣٩.

القرآن الكريم ينهى عن النظر العقلى أم أنه على العكس يأمر به وبغيره من عمليات عقلية أخرى هى من طبيعة التفكر والتعقل مثل النظر والتبصر قال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ... ﴿١٨٥﴾﴾ [الأعراف]، وقال عز وجل ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾﴾ [الطارق]. وقال فى موضع آخر: ﴿فانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ... ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة]. والنظر يعقبه التبصر قال تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات]، وقال فى موضع آخر: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [السجدة].

هكذا جاءت آيات الله البينات تأمر الإنسان بالنظر والتبصر كأساس للتفكر والتعقل حتى يكون التفكير سليمًا والتعقل ضرورة حتمية للبشرية.

ولذلك ذم الله الذين لا يعقلون ورماهم بالجهل والغفلة ووصفهم بأقبح الصفات فقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [يونس].

وفى موضع آخر بيّن الله حال الكفار المعاندين الذين يلجأون للعقل ولم يحتكموا إليه فكان نصيبهم جهنم وبئس المصير: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ ... ﴿١١﴾﴾ [الملك]. وكذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنفال].

ها هو القرآن الكريم الكتاب المقدس للمسلمين يدعو إلى النظر العقلى والفكر الحر ويذم الذين لا يعقلون؛ إذن ليس هناك أى مجال لأى زعم أو افتراء فى حق الإسلام الذى حطم كل القيود التى تقيد العقل الإنسانى وتعوق حركته فرفض التبعية الفكرية والتقليد الأعمى وعاب على المشركين تقليدهم الأعمى لعرف آبائهم وتقاليد أجدادهم، ودعاهم إلى الفكر الحر المستقل بل جعل التفكير فريضة إسلامية يقوم عليها إيمان المؤمن وبه تثبت عقيدته.

فالناظر فى القرآن الكريم يجد مادة غزيرة وقضايا كثيرة شغلت الفكر الإنسانى بصفة عامة ونهل منها المفكرون المسلمون بصفة خاصة حيث أشبعت

لديهم رغبة فى النظر والتأمل والإحساس والاستدلال بحقائق الوجود فى نفوسهم فاستيقظ عقلهم لمواجهة هذه الحقائق وأخذ بمنهج القرآن البرهانى وانطلق يبنى بناءه الفكرى ويقيم نظره العقلى ومذهبه الفلسفى.

وكذلك كانت آياته حين تخاطب العقل الإنسانى إنما ينبهه للحقائق فيقول عز وجل: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣)﴾ [فصلت].

ويعرض القرآن الكريم لهذه الآيات المبثوثة فى الكون ويذكر منها ثمانية أدلة، يستدل بها العقل الإنسانى بنظره العقلى الحر على وجود إله خالق قادر عالم حكيم رتب كل شىء بنظام ثابت عظيم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤)﴾ [البقرة].

ولم يقف القرآن الكريم عند حد الأمر بالنظر والتكليف به، بل وضع أمام الإنسان نماذج للتفكير ليجعل الفكر حرًا فى النظر والتأمل يجوب السموات والأرض ويغوص فى أعماق النفس فيقول عز وجل: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١)﴾ [الذاريات]. وقوله تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ... (١٠١)﴾ [يونس].

فهذا الأمر بالنظر فى ملكوت السموات والأرض هو تكليف بالتفكير والاعتبار وتمكين للعقل بأن يقول كلمته فى كثير من القضايا العقلية.

حقًا لقد سلك القرآن الكريم منهجًا عقليًا وقدم أدلة وبراهين قوية لإثبات وجود الله فقال عز وجل مخاطبًا العقل الإنسانى: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ... (١٠)﴾ [إبراهيم]. وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٨٧)﴾ [الزخرف].

وقال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ (٣٦)﴾ [الطور].

فالإنسان إذ فكر فى كيفية خلقه من أى شىء خلق، عرف يقينًا أنه بذاته لم يكن ليدبر خلقه، وعلم بالضرورة أن له خالقًا صانعًا عالمًا وقادرًا مريدًا خلقه وخلق السموات والأرض؛ لأنها لم توجد كذلك بدون موجد ولا يتصور حدوثهما بدون محدث وأن الخالق لذلك كله له صفات دلت أفعاله عليها، ولا يمكن إنكارها، وقد دلت أفعاله على كونه عالمًا قادرًا مريدًا، فدلت على العلم والقدرة والإرادة؛ لأن وجه الدلالة يختلف شاهدًا وغائبًا أيضًا، فلا معنى للعالم حقيقة إلا أنه ذو علم ولا للقادر إلا أنه ذو قدرة. ولا للمريد إلا أنه ذو إرادة.

وهذا بعينه ما توصل إليه المفكرون المسلمون نتيجة نظرهم وتبصرهم فى القرآن الكريم وتأملهم فى هذا الكون الفسيح، وهذا النظر والتأمل اللذان أحدثهما القرآن فى نفس المسلمين إنما هما خطوتان من خطوات التفلسف التى لجأ إليها الفلاسفة فى موقفهم الفلسفى من الكون وظواهره.

ويعاود القرآن الكريم النظر العقلى مرات ومرات فيقول الحق ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦)﴾ [النبأ].

كل هذه الظواهر الكونية لتدل دلالة قوية على قدرة الله الخالق الذى خلق الكون ورتبه بحكمة بالغة وقدرة غير متناهية وعناية شاملة لكل ما فى الوجود من موجود.

وإذا كان القرآن خاطب عقل الإنسان ليؤكد بالبرهان وجود الله الخالق القادر العالم. فهو ينهج نفس المنهج العقلى فى إثبات وحدانية الله وأنه لا إله إلا هو.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون].

وقال عز وجل منبهًا العقل الإنساني: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا...﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء].

هذه الحجة القوية والبرهان العقلي يؤكد أن تعدد الآلهة مستحيل وأن القول الحق هو أن الله واحد أحد لأنه لو كان هناك أكثر من إله واحد لكانت أفعالهم متعددة ومختلفة باختلاف علمهم وإرادتهم، وهذا الخلاف يستحيل معه الوفاق، لأن كل واحد بمقتضى وجوب وجوده وما يتبعه من الصفات، له السلطة على الإيجاد في عامة الممكنات وله التصرف حسب علمه وإرادته ولا مرجح لإحدى القدرتين دون الآخر، فتضارب أفعالهم بحسب التضارب في علمهم وإرادتهم ويفسد الكون بل يستحيل أن يسير على نظام، بل يستحيل وجود ممكن من الممكنات لأن لكل ممكن لا بد أن يتعلق به الإيجاد على حسب العلوم والإرادات. فيلزم أن يكون للشيء الواحد وجودات متعددة وهو محال.

وبالتالي لو كان فيهما إله إلا الله لفسدتا، والفساد غير واقع وممتنع بالبداهة، فالإله على ذلك واحد أحد فرد صمد لا شريك له في وجوده ولا ند له في أفعاله.

يقول الإمام الغزالي في دلالة هذه الآية: «لا أبين منها في برهان التوحيد»[1]، وأنه لا مزيد على بيان القرآن في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران].

فعقيدة التوحيد من أهم القضايا التي أثبتها القرآن الكريم بالنظر العقلي والبرهان الاستدلالي والحجة الواضحة، يقول الفخر الرازي في تفسيره الكبير: «إن

---

(١) الغزالي، المنقذ من الضلال.

الآيات الواردة فى الأحكام الشرعية أقل من ستمائة آية، وأما البواقى ففى بيان التوحيد والنبوة والرد على عبدة الأوثان وأصناف المشركين»[1].

ويؤكد الإمام أن نظر المتكلمين إنما قام أساسا للدفاع عن عقيدة التوحيد بالدليل العقلى والرد على المخالفين، وقد ذكر الفخر الرازى فى هذا الصدد «يقصد بالدلائل على وجود الصانع وعلى صفاته وعلى البنوة والمعاد، والقرب منها، ودفع المطاعن والشبهات القائمة فيها»[2].

ولقد أكد ابن خلدون هذا المعنى فى تعريفه لعلم الكلام بأنه «هو علم يتضمن الحِجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين فى الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة، وسر هذه العقائد الإيمانية هو التوحيد»[3].

ثم يقدم ابن خلدون برهانًا عقليًا عن التوحيد مستمدًا أساسًا من توجيه القرآن للعقل بالنظر الحر، والتأمل والتفكر فى هذا الكون، يقول ابن خلدون: «إن الحوادث فى عالم الكائنات سواء كانت من الدواب أو من الأفعال البشرية أو الحيوانية فلا بد لها من أسباب متقدمة عليها بها تقع فى مستقر العادة وعنها يتم كونه. وكل واحد من هذه الأسباب حادث أيضًا، فلا بد له من أسباب أخرى ولا تزال تلك الأسباب مرتقية حتى تنتهى إلى مسبب الأسباب وموجدها وخالقها سبحانه لا إله إلا هو»[4].

فمنهج القرآن منهج عقلى وبناؤه بناء منطقى يربط بين الأسباب والمسببات والمقدمات والنتائج ليقف بها العقل الإنسانى على معرفة بعض أسرار الوجود ويدافع عن عقيدة التوحيد؛ ولذلك نجد القرآن يدخل فى حوار عقلى مع أهل

---

(١) الفخر الرازى، التفسير الكبير، ج١، ص٣٠٧.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص٣٠٨.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، ص٤٥٨.

(٤) المرجع السابق.

الأديان الأخرى ليثبت بالحجة البالغة فساد عقيدتهم المخالفة للإسلام، فعرض لعبادة الأصنام التى لا تضر ولا تنفع بل هى مصنوعة بأيديهم صنعوها من خشب أو حجر، وقد نبههم الله لفساد ذلك بقوله عز وجل: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الصافات]، فهل يمكن لإنسان عاقل أن يعبد ما صنعه ونحته بيده، إن المستحق للعبادة لا بد وأن يكون خالقًا وليس مخلوقًا قادرًا صانعًا لا مصنوعًا؛ ولذلك أيقظ القرآن عبدة الأصنام ليفيقوا من ثباتهم وينتبهوا لسوء حالهم ويتفكروا فيما يعبدون ويقدسون لدرجة أنهم كانوا يحملون أصنامهم معهم فى حِلِّهم وترحالهم، وكانت شبه جزيرة العرب تعج بعدد كثير منهم ولكن بالإقناع العقلى والحوار المنطقى من جانب الإسلام جعل هؤلاء ينصرفون عن عبادة الأصنام والأوثان.

وأيضًا نجد الحوار العقلى من جانب القرآن الكريم مع أهل الكتاب صورة واضحة للمنطق العقلى والبرهان والحجة القوية. إذ قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران].

ويخاطب القرآن الجانب العاقل فى الإنسان بقوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [آل عمران]. فهذه الشهادة العقلية بآيات الله جديرة بالتصديق به والتسليم له. ثم يوضح لهم فساد منهجهم بقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ [آل عمران]. فالحق واضح بالعقل ظاهر بالبرهان ولا يجوز إنكاره، فالإسلام يحترم العقل ويدعو للتفكير الحر ولا يلجأ للقوة أو القهر فى الإقناع والمناقشة لأهل الأديان السابقة عليه بل يحاول معهم ليصحح ما وقعوا فيه من أخطاء وما أصابهم من تحريف أبعدهم عن الحقيقة؛ ولذلك نجد القرآن العظيم يدعوهم إلى الاحتكام للعقل

والنظر لكي يصلوا إلى الحق والصواب، وكانت قصة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام مثالاً واضحًا للاحتكام إلى العقل والوصول به للحقيقة وتزييف ما عداها إذ قال عز وجل: ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين (٧٥) فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين (٧٦) فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين (٧٧) فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون (٧٨) إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين (٧٩)﴾ [الأنعام].

هذه الآيات البينات إنما هى خير مثل على المنهج العقلى فى القرآن الكريم الذى أورد قصص الأنبياء لتنبه العقول وتحرر الفكر من المعتقدات السابقة غير الصحيحة وتقيم الحجة والبرهان على صدق الإسلام فى دعوته لعبادة الله وحده ولا تشرك به شيئًا من ظواهر كونية مخلوقة لقوة أكبر وأعظم هى الله.

يقول الأستاذ الدكتور يحيى[1] هويدى فى كتابه دراسات فى علم الكلام والفلسفة الإسلامية: «إن قصة سيدنا إبراهيم لها جانب آخر فى الرد على عبدة الكواكب من الصابئة الذين زاغوا عن عبادة الله الواحد وعشقوا الكواكب وعبدوها من دون الله تعالى فأشركوا به. وقد أشار القرآن إلى أن بعض العرب قد سجدوا للشمس والقمر فنهاهم الله عن ذلك وبين أن هذا العالم بما فيه هو من خلق الله تعالى إذ قال: ﴿ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون (٣٧)﴾ [فصلت].

من هذا النظر العقلى لسيدنا إبراهيم وصل لمعرفة الله ورد على الصابئة الذين يعبدون ظواهر كونية ليس لها صفة الدوام ولا الثبات، بل تظهر حينًا وتختفى ولا يمكن أن يكون الله على هذه الصورة بل الله لابد أن يكون أكبر وأعظم وله الاستمرار والدوام والقدرة على خلق هذه الظواهر الكونية الحادثة

---

(١) لدكتور يحيى هويدى، درسات فى علم الكلام و لفلسفة الإسلامية، ص٤٧

المؤقتة؛ ولذلك جاء الإسلام خاتم الأديان ليناقش أهل هذه الأديان بالحجة والبرهان ليحدد موقفه منها فيقبل ما كان متفقا وما جاء به قل أو كثر، وينفى ما حور وصرف منها قل أو كثر، ويبين أوجه النقص التى اشتمل عليها باعتبار أنه متمم لها وخاتم الدعوات، ولذلك دخل فى حوار عقلى مع الأديان السابقة ليصحح عقيدتهم وليثبت صدق الإسلام، وأنه الدين الحق والعقيدة السليمة.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ... ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران]. فأصل الدين هو الإسلام قال عز وجل: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة].

فالإسلام هو أصل الأديان وأن الانحراف جاء من الذين لم يفهموا الأديان وسموا أنفسهم يهودًا أو نصارى، ولنسمع لقول سيدنا إبراهيم أبى الأنبياء: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة].

ومن هنا دخل الإسلام فى حوار مع أهل الأديان ليبين ويوضح حقيقة دعواه وفساد ما وصلت إليه عقيدة اليهود والنصارى فقال القرآن عنهم: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [البقرة]. وهذا الاختلاف فيما بينهم دليل التحريف فى أقوالهم وعدم الصدق فى زعمهم لأنه كيف يمكن أن يكون ذلك كذلك ومصدر الدين واحد وهو الله.

لقد انصرفوا فى قولهم عن المعنى الحقيقى للكتب السماوية فغيروا وبدلوا وأدخلوا على الأديان ما ليس فيها وزعموا أن لله ولدًا - تعالى الله عما يقولون،

قال عز وجل: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [البقرة]. وهذا القول منهم أفسد عقيدتهم وجعل التناقض فى قولهم وزعمهم فاختلفوا فيما بينهم قال عز وجل: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة]. هكذا كان رد الإسلام عليهم فى افترائهم، وجاءت سورة الإخلاص لتؤكد ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص].

ولقد تمادى النصارى فى انحرافهم وتغالوا فى افترائهم بقولهم: إن الله هو المسيح ابن مريم وكيف يكون الله ابنًا مخلوقًا وبشرًا مولودًا وهو أصل جميع المخلوقات بل خالق لها وليس مخلوقًا، ولذلك رد القرآن الكريم عليهم بقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [المائدة].

ولقد أبان الله عن انحرافهم وفساد قولهم ورد عليهم ردًا شديدًا فى اعتقادهم وحكم عليهم بالكفر بسبب زعمهم وافترائهم أن الله هو المسيح ابن مريم فقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة]. لقد ظلموا أنفسهم بأقوالهم وانحرافهم عن الحق وزعمهم عقيدة التثليث فى الأهم لذلك قال الله فيهم: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [المائدة].

إن التضارب والتخبط فى كلامهم فتارة يفترون فى قولهم ولا يحترمون عقولهم فيزعمون أن الله هو المسيح ابن مريم وتارة يدّعون أن الله ثالث ثلاثة هو أب وابن وروح قدس - تعالى الله عما يقول الظالمون.

ويناشدهم الإسلام بالتعقل والرجوع إلى الحق بقوله عز وجل: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة].

ثم يقرر الله سبحانه وتعالى حقيقة المسيح ويبين لهم بالعقل والمنطق الصورة البشرية للمسيح وأنه رسول من عند الله وأن أمه صدِّيقة وأنهما يأكلان من الطعام مثلهم مثل البشر فهل يمكن بعد ذلك أن يكون المسيح إلهًا أو ابن إله. قال تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة].

ويسأل الله تعالى عيسى ابن مريم عن سبب هذا الافتراء المزعوم فيقول عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة].

هذا هو رد عيسى عليه السلام لسؤال الله تعالى والعهد الذى حفظه وتوفى عليه وسيجيب به ربه يوم القيامة ليعرف هؤلاء المسرفون حقيقة شأن عيسى والزاعمين عنه ما ليس له من ألوهية أو بنوة أو حلول، ولقد أكد الله بالبرهان العقلى حقيقة عيسى وبين أن عيسى لم يكن إلا بشرًا من آل عمران الذين اصطفاهم الله من بين من اصطفى واختار، وأن ولادته لم تكن إلا تنفيذًا لإرادة الله الذى يصور الناس فى الأرحام كيف يشاء وأن خلق عيسى شأن خلق آدم فإذا كان الله خلق آدم من غير أب وأم فأهون عليه أن يخلق عيسى من غير أب. قال تعالى مخاطبًا الذين انحرفوا عن الحق: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران].

هذا البيان الواضح إنما يخاطب العقل الإنسانى المفكر السليم ليقارن بين الأشياء. ويقيس ويستدل على حقيقة الأمر من أن عيسى بشر وليس إلهًا أو ابن إله وأنه رسول من عند الله كان خلقه معجزة مثل آدم عليه السلام.

هذه هى الفطرة التى فطر الله الناس عليها عقل يفكر، ويستدل من الآيات والشواهد ويقيس الغائب بالشاهد ليعلم أن الله إذا أراد شيئًا يقول له كن فيكون وبتلك القدرة وبهذه الإرادة خلق الله عيسى، وأن هذا الأمر هيِّن على الله وأن العقل الإنسانى يستطيع أن يدرك هذا بالنظر والتبصر فى خلقه لآدم، ويوضح الله للمسيحيين أن خلق عيسى مثل خلقه آدم فإذا كانوا يؤمنون بأن آدم خلق من غير أب وأم فيكون خلق عيسى أهون عليه، هذا ما يثبته العقل وتقوم عليه الحجة والبرهان فليس هناك أى لبس أو إيهام فى الحقيقة التى تحدث عنها القرآن وأوضحها الإسلام. أيمكن بعد ذلك كله قبول قول من زعم أن الإسلام يعوق النظر الحر؟! أم يقول بعد ذلك أن الإسلام يخاطب العقل وينبه الفكر لحقائق الخلق ليستدل على الخالق القادر الذى خلق كل شىء فسوى وليؤمن بوحدانيته وتقديسه وتنزيهه عن المماثلة والمشابهة للبشر، وأن الله لم يلد ولم يولد، ولم يكن له مثيل قط، وأن التوحيد الخالص والتنزيه المطلق هما أساس عقيدة المسلم، والإسلام واضح فى عقيدته صريح فى أركانه وأصوله خاطب العقل وأيقظ الفكر ولا يجوز بعد ذلك عليه أى افتراء أو ادعاء من قبل أناس لم يفهموا القرآن ولم يدركوا حقيقة الإسلام. وحقت عليهم كلمة الله ونقول مع القرآن الكريم عنهم: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأعراف].

لقد جحد هؤلاء آيات القرآن الكريم فلم تنفتح لها عيونهم، ولم تبصر بها عقولهم ولم تتجه إليها أفكارهم. وجحدوا الحقائق وأنكروا نداء الإسلام للنظر والتبصر والتعقل والتفكير. بل زادوا على ذلك زعمًا آخر بقولهم أن حزب السنة حزب محافظ يتمسك بالنصوص. وقد قصدوا من وراء ذلك تصوير السنة على أنها ضد الفكر الحر أو إعمال العقل السليم، وهذا افتراء مثل سابقه وزعم يفنده الرسول ذاته قولاً وعملاً، وقد قال الرسول ﷺ: «ما وافق العقل اقبلوه وما خالفه ارفضوه»، وأمره بالاجتهاد بالرأى لصحابته وأتباعه، ولم يحرم على أحد أن يجتهد وكان هو نفسه يجتهد تبعًا لقول الله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ... ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران]. وقوله عز وجل: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ... ﴿٣٨﴾﴾ [الشورى]؛ ولذلك

كان الرسول عليه الصلاة والسلام يشاور أصحابه فى أى أمر يعرض عليه ولم يجد له حكمًا فى النص القرآنى المنزل، وقد اعتبر الرسول هذا الأمر الإلهى تشريعًا سماويًا لإبداء الرأى وإعمال العقل والفكر فيما يعن لهم من أمر لم يرد بشأنه نص أو وحى فليجتهد الرسول ﷺ مع صحابته فى النظر والبحث حتى يصلوا معًا إلى الرأى الصائب والحل القريب من النص المنزل.

هذا التشريع الإسلامى سواء من عند الله أو من عند الرسول ﷺ إنما يهدف بالدرجة الأولى إلى وضع منهج عقلى للمسلمين يسيرون عليه ويلتزمون به ويكون سلوكًا وتربية لهم ودفاعًا لحرية الفكر وإعمال العقل، ولذلك نجد الرسول ﷺ يجمع أصحابه للتشاور والنظر فى الأمر ليعَوِّدَ أصحابه على حرية الرأى، واستقلال الفكر وقوة الشخصية ونجده بالفعل قد أفسح صدره لهم فى هذا المجال حتى ليخيل للمرء أنهم تجاوزوا الحد فيه.

فهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول للنبى ﷺ: يا محمد احجب نساءك فيرد عليه الرسول الكريم: لم أومر بذلك. إن عمر كان ينظر بنور الله فيرى أن زوجات الرسول ﷺ لهن من الشأن ما ليس لغيرهن من سائر النساء، ولقد أبان جل شأنه عن صواب رأيه فيما أنزل على الرسول من قول الله تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ... (٣٢)﴾ [الأحزاب].

وهذا على بن أبى طالب كرم الله وجهه، يقول للنبى ﷺ إبان أزمة حادثة الإفك (إن النساء لكثير). يشير بذلك إلى أنه ينفى على الرسول ﷺ أن يطلق عائشة ثم يشير باستجواب جاريتها، والجارية تقول: (والله ما أعلم إلا خيرًا). إن عليا رضى الله عنه كان غاضبًا من حديث الناس فى هذا الموضوع، وقد غضب الله له كذلك فقال عز وجل: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧)﴾ [النور].

وقد بدأ جل شأنه الآيات بالتهديد للمفترين، والتطمين للمفترى عليهم فقال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١)﴾ [النور].

يقول الدكتور سليمان دنيا فى كتابه «التفكير الفلسفى الإسلامى». عن الرسول ﷺ وصحابته: «ولعله ﷺ كان يجدهم بهذه التربية التى تمكنهم من تحليل الأمور واقتراح العلاج المناسب، لما يعلم أنهم سيتبوءون مكان التشريع للإنسانية جمعاء فكان لا بد أن يدربهم على إعمال الفكر والنظر فى الأمر وإبداء الرأى، وقد عرف الصحابة رضى الله عنهم ذلك من رسول الله ﷺ، ومن تعاليم دينهم فأطلقوا على سجيتهم يمارسون هذه المهمة الخطيرة ويتعلمون حرية الرأى والتفكير»[1].

وكذلك كان الأمر عندما سأل الرسول ﷺ معاذا حين أرسله واليًا على اليمن: «بماذا تحكم يا معاذ؟». فقال معاذ: بكتاب الله. فسأله الرسول ﷺ: «فإذا لم تجد فى كتاب الله؟». فرد قائلاً: فبسنة رسول الله. فقال الرسول: «فإذا لم تجد فى سنة رسول الله؟». فقال معاذ: أجتهد الرأى، ولا أقصر. فرد الرسول ﷺ قائلاً: «الحمد لله الذى وفق رسولَ رسولِ الله لما يرضى الله ورسوله».

وكان هذا الاجتهاد بالرأى بداية للنظر العقلى الحر للمسلمين، وإذنًا به، ومما يؤكد ذلك أيضًا ما روى عن النبى ﷺ من اجتهاد عندما سألته الجارية الخثعمية، وقالت: يا رسول الله، إن أبى أدركته فريضة الحج شيخًا زَمِنًا، لا يستطيع أن يحج، إن حججت عنه أينفعه ذلك؟.

فقال لها: «أرأيت لو كان على أبيك دين فقضيته، أكان ينفعه ذلك؟». قالت: نعم. قال: «فدين الله أحق بالقضاء».

فهذا القياس من الرسول ﷺ إنما هو اجتهاد بالرأى، وإعمال للفكر، ونظر فى الأمور، بدون التمسك بالنصوص، إذ لم يكن هناك نص يخالف هذا الرأى أو يعارضه. وفى ذلك يقول الرسول ﷺ: «أنا أقضى بينكم بالرأى فيما لم ينزل منه وحى».

---

(١) د. سليمان دنيا، التفكير الفلسفى الإسلامى، ص٣٤٤-٣٤٦.

وكثيراً ما اجتهد الرسول عليه الصلاة والسلام فى مسائل لم يرد لها نص، وقد أصاب كثيراً فى رأيه أحياناً وجاء من السماء ما يصحح هذا الخطأ، وكان الرسول ﷺ يعلن للناس هذا التصحيح لا يخشى لومة لائم ولا انتقاداً لقادح إنما الهدف من الرأى الوصول إلى الحق والصواب.

مثال ذلك ما حدث من خلاف فى الرأى حول قبول الفدية من أسرى بدر فقد اجتهد الرسول ﷺ فيها واستشار أصحابه فى معاملتهم فأشار عليه أبو بكر رضى الله عنه بقبول الفدية ليفتدى بها أصحابه المسلمين، وكان رأى عمر بن الخطاب على نقيض ذلك وأشار على الرسول ﷺ بقتلهم وإراقة دمائهم ووافق الرسول على رأى أبى بكر وقبل الفداء، ولكن الآية الكريمة نزلت لتصحح للرسول عليه الصلاة والسلام الرأى، فقال عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنفال].

وكذلك جاءت سورة المجادلة وسورة التحريم لتصحيح رأى الرسول ﷺ واجتهاده، فعندما جاءت امرأة تشتكى للرسول ﷺ من زوجها، وتقول له أن زوجها قال لها: أنت علىَّ كظهر أمى. فقال لها الرسول ﷺ: أنت عليه كظهر أمه. فراجعت فى أمرها، واشتكت إلى الله، فنزلت السورة الكريمة لتبين الحق فقال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾﴾ [المجادلة].

فالله تعالى يصحح للرسول ﷺ الخطأ الذى وقع فيه، ويعلن الرسول هذا التصحيح للناس لكى يتعلموا ويعرفوا الحقيقة التى أرادها الله.

وكذلك جاءت سورة التحريم تصحح للنبى ﷺ رأيه فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ①﴾ [التحريم].

ومع ذلك لم يتوقف الرسول وصحابته عن الاجتهاد بالرأى، وقد ضرب الرسول ﷺ بذلك المثل الأعلى للمسلمين لكى يجتهدوا مثله ولا يخشوا الخطأ، فهو نفسه قد اجتهد وتعرض فى اجتهاده للخطأ، وكان من الممكن أن يوفر ذلك وينتظر الوحى، ولكنه اجتهد بالرأى، ليكون ذلك سنة للمسلمين، وكان عليه الصلاة والسلام يشجع صحابته على ذلك. وقد روى عن عمرو بن العاص وكان يجلس فى محضر الرسول ﷺ، فسأل الرسول: أأجتهد وأنت حاضر؟. فقال له الرسول ﷺ: «نعم إن أصبت فلك أجران، وإن أخطأت فلك أجر واحد».

هكذا كانت السنة النبوية الشريفة، حرية فى الفكر واجتهاد بالرأى ونظر فى المسائل التى تواجه فكر المسلم دون قيد ما دامت لا تتعارض مع النص المنزل المصدر الأول للتشريع الإسلامى، وسار الصحابة رضوان الله عليهم على نفس منهج الرسول ﷺ، وكان عمر رضى الله عنه أكثر صحابة الرسول ﷺ فتوى وإبداء للرأى وكثيراً ما نزلت الآيات القرآنية تصدق على رأيه وتؤكده وهذا يعنى الكثير فى نظرنا، هو أن الله سبحانه وتعالى لا يمنع الاجتهاد بالرأى والفكر والنظر الحر، وذلك واضح من تصديق الوحى المنزل من عند الله على رأى عمر وتصحيحه لرأى الرسول أحياناً يدل هذا على أن لا فرق بين الرسول ﷺ وعمر فى أن يجتهدا بالفكر لأن العقل الإنسانى واحد فى البشر جميعاً، ويمكنه أن يصيب أحياناً ويخطئ أحياناً، وأن هذا لا يتعارض مع المنهج الإسلامى الحقيقى الذى يدعو للحكمة والفكر الحر، وسار الصحابة جميعاً على نفس المنهج من اجتهاد وإعمال للعقل، واحترام للرأى قال ابن حزم: «وقد كان الصحابة يقولون بآرائهم فى عصره، عليه الصلاة والسلام، فيبلغه ذلك، فيصوب المصيب ويخطئ المخطئ»[1]. وكان يفتى فى زمن النبى ﷺ من الصحابة: أبو بكر وعمر وعثمان

(١) ابن حزم، الأحكام فى أصول الإحكام، ج٦، ص٨٤.

وعلى، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن مسعود، وأبى بن كعب. ومعاذ بن جبل، وعمار بن ياسر، وحذيفة بن اليمان، وزيد بن ثابت، وأبو الدرداء، وأبو موسى الأشعرى، وسلمان الفارسى، رضى الله عنهم»[1].

يقول ابن حزم: «المكثرون من الصحابة رضى الله عنهم، فيما روى عنهم من الفتيا: عائشة أم المؤمنين، عمر بن الخطاب، وابنه عبد الله، وعلى بن أبى طالب، وعبد الله بن العباس، وعبد الله بن مسعود، وزيد بن ثابت، فهم سبعة يمكن أن يجمع من فتيا كل واحد منهم سفر ضخم، وقد جمع أبو بكر محمد بن موسى بن يعقوب ابن أمير المؤمنين فتيا عبد الله بن العباس فى عشرين كتابًا»، وقد أثبت الشيخ مصطفى عبد الرازق فى كتابه تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، من أن النظر الإسلامى إنما قام أساسا على الاجتهاد بالرأى فيما لم ينزل فيه نص أو وحى، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام وصحابته وأهل السنة من بعده قد اجتهدوا بالعقل وعملوا بالرأى وأن العقل كان أصلاً من أصول التشريع الإسلامى فيما لم ينزل به تنزيل[2].

وليس هناك إضافة لما قام به الشيخ مصطفى عبد الرازق من جهد عظيم فى بيان أصالة المفكر المسلم، وقد أثبت بالدليل والبرهان أن الإسلام لم ينه المسلم عن الفكر الحر. بل إن المسلمين حتى الأوائل قد اجتهدوا فى حضور النبى ﷺ وعملوا بالرأى فى زمنه، ثم سارت السنة من بعده على نفس المنهج العقلى، وأن هذا المنهج العقلى لا يتعارض مع عقيدة المسلم بل العكس هو الصحيح فى أن الإسلام جعل التفكير فريضة على كل مسلم ومسلمة، كما جعل العلم فريضة على كل مؤمن ومؤمنة، وهل يمكن أن يقوم علم بدون فكر حر وعقل مستقل.

والتراث الإسلامى الذى تركه لنا الفقهاء والأصوليون والمتكلمون المسلمون لخير دليل على عظمة الإسلام وتشجيعه للفكر الحر. فلولا هذا الحث من جانب

---

(١) المقريزى، الخطط، ج١، ص١٤٢.

(٢) الشيخ مصطفى عبد الرازق، تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، ص١٥٦.

القرآن الكريم على التفكير والتدبر والعقل والحكمة لما أنتج المسلمون هذا الصرح الشامخ من العلوم الدينية والعقلية التى تؤكد عظمة الإسلام وحثه باستمرار على النظر العقلى.

حقًا لقد سلم المسلمون الأوائل بالدين الجديد، دين التوحيد، وصدقوا به تصديقًا، وكان الإيمان القلبى هو المرحلة الأولى للاعتقاد، وانبهرت نفس المسلم بعظمة الدين الإسلامى، وبشخصية الداعى الرسول محمد ﷺ، وتأثيره النفسى والخلقى على نفوس المتطلعين للإسلام، وقد أعجبوا به، وكان عليه الصلاة والسلام الأسوة الحسنة فى قوله وفعله، كما كان للحالة الاجتماعية والفكرية للأمة العربية أثر كبير فى سرعة التصديق بالإسلام واعتناقها له، حيث وجدت فيه الخلاص من سوء الحال الذى تردوا فيه، فسلموا به تسليمًا وخضعوا له عن تصديق وإيمان.

ولكن هناك فرقًا بين الإيمان والمعرفة، فالأول محله القلب والثانية محلها العقل، ومن ثم نستطيع أن نقول إن المسلمين فى بادئ الأمر، صدقوا بالنص الدينى بقلوبهم قبل أن يدركوه بعقولهم، وقد أوضح جوستاف لبون فى كتابه الآراء والمعتقدات «الفرق بين مصدر المعرفة» فقال: «إن المعتقد هو إيمان ناشئ عن مصدر لا شعورى، يكره الإنسان على تصديق فكر أو رأى. أو تأويل، أو مذهب جملة، وأنه لا عمل للعقل فى تكوين المعتقد، وأنه لا يأخذ فى تبرير المعتقد، إلا بعد تكوينه، ونقصد بالمعتقد كل ما هو من عمل الإيمان فمتى استعان المرء فى تحقيق صحة المعتقد بالتأمل والتجربة، عاد المعتقد لا يكون معتقداً، بل انقلب إلى معرفة، والمعرفة هى اقتباس شعورى عقلى قائم على الاختيار والتأمل، والمعتقد والمعرفة لذلك أمران نفسيان يختلفان من حيث المصدر اختلافًا تامًا»[1]، وكذلك فَرَّق «كانت» بين المعتقد والمعرفة بقوله: «اضطررت أن أوقف المعرفة، كى آخذ مكانًا للإيمان»[2].

---

(١) جوستاف ليبون، الآراء والمعتقدات، ص٧-٨، الترجمة العربية.

(٢) د. محمد البهى، الجانب الإلهى من التفكير الإسلامى، ص٤١.

ولكننا نجد الإمام ابن حزم من أهل السنة قد وضح المعرفة مكانًا فى حقيقة الإيمان فبعد أن عرف أهل السنة الإيمان بأنه تصديق، تساءل ابن حزم بأى شىء صدق المصدق؟ لا شىء دون شىء لأن الله تعالى أوقع الإيمان على العقد بالقلب لأشياء محددة مخصوصة معروفة[1]. إذن فلا إيمان بدون معرفة.

ولعل ذلك كان السبب فى كثرة السؤال والحوار بين المسلمين بعضهم بعضًا. حدثنا ابن سعد فى كتابه «الطبقات» عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن ابنى العاص - عمرو وهشام - أنهما قالا: جلسنا مجلسًا فى عهد رسول الله ﷺ كنا به أشد اغتباطا من مجلس جلسناه يومًا، جئنا فإذا أناس عند حجر رسول الله ﷺ يتراجعون فى القرآن، فلما رأيناهم اعتزلناهم، ورسول الله خلف الحجر يسمع كلامهم، فخرج علينا رسول الله ﷺ مغضبًا، يعرف الغضب وجهه حتى وقف عليهم، فقال: أى قوم، بهذا ضلت الأمم قبلكم فاختلافهم عن أنبيائهم، ضربهم الكتاب بعضه ببعض، إن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه بعضًا، ولكن ليصدق بعضه بعضًا، فما عرفتم فاعملوا به، وما تشابه عليكم فآمنوا به، ثم التفت إلىَّ وأخى، فغبطنا أنفسنا ألا يكون رآنا معهم»[2].

ومن ذلك الحديث نتبين كيف كان المسلمون يتراجعون فى القرآن، ويبحثون فى معانيه ليشيعوا فى نفوسهم حب المعرفة والوصول إلى الحقيقة، وأن الرسول ﷺ أشفق عليهم وأمرهم بأن يتناولوا القرآن ككل؛ لأن ذلك يفسر بعضه بعضًا، ويساعدهم على تَفَهُّم ومعرفة المعنى المقصود، فالرسول ﷺ يوضح لهم المنهج الذى يجب على المسلمين اتباعه لكى يستطيعوا فهم القرآن كلام الله[3] أما ما تشابه عليهم وصعب فهمه ومعرفته فليؤمنوا به، أى يأخذوه على ظاهره ويسلموا به تسليمًا حتى يفتح الله عليهم بنور العلم والمعرفة؛ ولهذا كان المسلمون يسألون

---

(١) ابن حزم، المحلى، ج١، ص٢٩.

(٢) ابن سعد، الطبقات، ج٤، ص١٤١.

(٣) ابن سعد، الطبقات، ج٤، ص١٤١.

الرسول ﷺ، والرسول ﷺ يجيب عليهم، عن أبى هريرة رضى الله عنه، قال: إن أناسا قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال الرسول ﷺ: «هل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر؟». قالوا: لا يا رسول الله. قال: «هل تضارون فى الشمس ليس دونها سحاب». قالوا: لا يا رسول الله. قال: «فإنكم ترونه كذلك»(١).

وحديث الرؤية رواه أكثر من ثلاثين صحابيًا، قال سعيد الخدرى أيضًا فى الصحيحين نظيره. أو حديث جرير بن عبد الله البجلى. قال: كنا جلوس مع النبى ﷺ ننظر إلى القمر ليلة أربعة عشر، فقال: إنكم سترون ربكم عيانًا كما ترون هذا لا تضامون فى رؤيته.

فالمسلمون يسألون الرسول عن مسائل غيبية تخص الذات الإلهية، والرسول عليه الصلاة والسلام يجيب عليهم ويوضح لهم بالأمثلة، وليس فى ذلك حرج ما دام الأمر ممكنًا عقليا، أما سؤال المسلمين للرسول عليه الصلاة والسلام عن الروح، والمسائل الغيبية الأخرى مثل الساعة ويوم القيامة فكانت الإجابة تتنزل من السماء. قال عز وجل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء].

وكذلك كان سؤالهم عن الساعة، فكانت الإجابة عليها من الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾﴾ [النازعات].

هكذا يظهر بجلاء كيف فكر المسلم فى أمور عقيدته، وشغل نفسه بالمسائل الغيبية الميتافيزيقية، وأعمل عقله فى معرفة النصوص الدينية، وكان ذلك فى وقت مبكر جدًا من الدعوة الإسلامية، والرسول ﷺ يجيب على أسئلة المسلمين ويوضح لهم ما أشكل عليهم ولم يحرم عليهم ذلك، وقد يبين لهم أن هناك مسائل فوق قدرة العقل لا يستطيع إدراكها.

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم فى الصحيحين

وكانت مشكلة القدر من هذه المشاكل العويصة التى شغلت فكر المسلمين منذ زمن مبكر أيضًا فى عهد رسول الله ﷺ، لقد نظر المسلم فى آيات القرآن الكريم، فوجد آيات تتحدث عن الخلق كله لله مثل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات]، وقوله عز وجل: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ... ﴿٦٨﴾﴾ [القصص]، وآيات أخرى تتحدث عن حرية الإنسان فى فعله ومسئوليته عن عمله كقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ... ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت]، وقوله تعالى: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الواقعة]. لقد احتار عقل المسلم فى فهم هذه الآيات ومحاولة التوفيق بينها وسألوا عن معنى ذلك وتناقشوا فى القدر، روى الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا داود بن أبى هند عن عمرو بن شعيب عن أبيه قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم والناس يتكلمون فى القدر، قال: فكأنما تفقأ فى وجهه حب من الغضب. قال فقال لهم: مالكم تضربون كتاب الله بعضه بعضًا؟ بهذا هلك من كان قبلكم. قال: فما غبطت نفسى بمجلس فيه رسول الله ﷺ لم أشهده بما غبطت نفسى بذلك المجلس أنى لم أشهده»[1].

من كل هذه الروايات الصحيحة يتبين لنا كيف كان المسلم يفكر فى أمور عقيدته، وأن يذور النظر العقلى خالط تربة المسلمين منذ كان صاحب الرسالة صلوات الله عليه، بين ظهرانيهم، وأن الرسول ﷺ أدرك ذلك وأدرك قدرة المسلم على النظر العقلى والبحث فى المسائل الغيبية، وأن هذا البحث سيؤدى بالمسلمين إلى الاختلاف فى النظر، وأنهم سوف يتفرقون تبعًا لذلك إلى فرق. عن أبى هريرة رضى الله عنه. أن رسول الله ﷺ قال: «تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة أو اثنتين وسبعين فرقة، والنصارى مثل ذلك وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة»[2].

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه وغيرهما.

(٢) رواه الترمذى.

فحرية الفكر والبحث والنظر لدى المسلمين، هى التى أتاحت الفرصة لظهور الخلاف، وهذا الخلاف توقعه النبى ﷺ لأنه يعلم تمامًا أن الناس مختلفون فى قدراتهم العقلية وأن الحرية العقلية التى أتاحت لهم الإسلام فى البحث والنظر، وظهور الحوار والجدل حول معانى الألفاظ التى جاءت فى القرآن وخاصة الآيات المتشابهة من الصفات والتى ورد فيها ذكر اليد والوجه والاستواء على العرش والرؤية وغير ذلك كثير، وتضمن كذلك القرآن الكريم آيات التنزيه المطلق، مثل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ... ﴿١١﴾﴾ [الشورى]. وهى الواجبة الاعتقاد، فسلم بعض المسلمين بآيات الصفات كما وردت دون تأويل، والبعض الآخر تأولها لتصبح متمشية مع ما يعتقده من التنزيه، ووقع بعض المسلمين فى التشبيه والتجسيم وحدث خلاف بين المسلمين فى مسائل كثيرة أخرى عبر عنها الأشعرى فى كتابه «مقالات الإسلاميين» فقال: «اختلف الناس بعد نبيهم ﷺ فى أشياء كثيرة ضلل بعضهم بعضًا، وبرئ بعضهم من بعض، فصاروا فرقًا متباينة، وأحزابًا متشتتين، إلا أن الإسلام يجمعهم ويشتمل عليهم»(١).

فالجميع مسلمون ولكن حرية الفكر والنظر التى عاش فى ظلها المسلمون جعلتهم يختلفون حول معانى وألفاظ القرآن، وإن كانوا قد أمسكوا عن الكلام فيها، استجابة لتوجيهات الرسول ﷺ إشفاقًا منه على قدراتهم العقلية فى فهم المعانى الإلهية، ولكن إن أمسكت الألسنة فلن تمسك القلوب، كما يقول الإمام أبو حنيفة النعمان(٢). فعقل المسلم يلح فى طلب المعرفة، ويسعى إلى تفهم المعانى، ولذلك اجتهد المسلمون فى ذلك، وكثر الكلام حول معانى القرآن، مما أدى إلى نشأة علم الكلام، يقول الأستاذ الدكتور أبو الوفا التفتازانى فى هذا الصدد: (أما لأن بعض هذه النصوص قد أثار بطبيعته فى عقول بعض المسلمين حب البحث فى العقائد الإسلامية والتقصى للعقائد المخالفة لها، إذ لأن بعض هذه النصوص من

---

(١) الاشعرى، مقالات الإسلاميين، ج١، ص٣٤.

(٢) البياضى، إشارات المرام من غيارات الإمام، ص٣٧.

قبل المتشابه الذى لا يدرك كنه معناه، كبعض آيات الصفات، وقد أدى تأويل بعض أهل الأهواء لمثل هذه النصوص المتشابهة إلى مشكلات عقائدية عويصة كانت فيما بعد موضوعًا لذلك العلم)[1].

ونتيجة لذلك ظهرت الفرق الإسلامية كل له منهجه ومباحثه الخاصة به، يقول ابن حزم فى هذا الصدد: «فرق المقرين بملة الإسلام خمسة، وهم: أهل السنة، والمعتزلة، والمرجئة، والشيعة، والخوارج، ثم افترقت كل فرقة من هذه على فرق»[2].

هذه الفرق والاختلاف بينهم إنما يرجع فى الواقع لحرية الفكر والنظر العقلى، ولم يمنع الإسلام ولا القرآن المسلمين من النظر والبحث، وأن أهل السنة أنفسهم مع التزامهم النص قد اختلفوا فى البحث، ذكر ابن طاهر البغدادى فى كتابه (الفَرْقُ بين الفِرَق)، عن أهل السنة والجماعة، أنهم ثمانية أصناف من الناس، صنف منهم أحاطوا علمًا بأبواب التوحيد والنبوة وأحكام الوعد والوعيد والثواب والعقاب وشروط الاجتهاد، والإمامة والزعامة، وسلكوا فى هذا النوع من العلم طرق الصفاتية من المتكلمين الذين يتبرءون من التشبيه والتعطيل، ومن بدع الرافضة والخوارج والجهمية والجارية وسائر أهل الأهواء الضالة.

والصنف الثانى منهم أئمة الفقه من فريق الرأى والحديث من الذين اعتقدوا فى أصول الدين مذاهب الصفاتية فى الله وفى صفاته الأزلية، وتبرءوا من القدر والاعتزال وأثبتوا الحشر فى القبور مع إثبات السؤال فى القبر، مع إثبات الحوض والصراط والشفاعة وغفران الذنوب التى دون الشرك. ويدخل فى هذه الجماعة أصحاب مالك والشافعى والأوزاعى، وأبو حنيفة، وابن أبى ليلى، وأحمد الظاهر، وسائر الفقهاء الذين اعتقدوا فى الأبواب العقلية أصول الصفاتية ولم يخلطوا بشىء من بدع أهل الأهواء الضالة»[3].

---

(١) الدكتور أبو الوفا التفتازانى، علم الكلام وبعض مشكلاته، ص١٤.

(٢) ابن حزم، الفصل فى الملل والأهواء والنحل، ج٢، ص١١١.

(٣) ابن طاهر البغدادى، الفرق بين الفرق، ص٢، ٣.

إذن مع تمسك أهل السنة بالنص نجدهم قد اختلفوا فيما بينهم، نتيجة حرية الفكر وإعمال العقل فى النظر فى النصوص، ويرى صاحب المسائل أن الخلاف الذى وقع بين الأمة، لأن كل شيء يحتاج إليه من أمور الدين ليس مبينًا فى القرآن نصًا، بل بعضه مبين وبعضه مستنبط بيانه منه بالنظر والاستدلال، وطرق النظر والاستدلال مختلفة، فلذلك وقع الخلاف أى أن الخلاف وقع بعيدًا عن أصول الدين أو العقيدة، وإنما كان فى الفروع وبعض الأحكام التى تتطلب النظر والاستدلال فاختلافهم إذن هو اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد»[1].

وقد اختلف أهل السنة اختلافات ليست جوهرية فى مسألة الصفات الإلهية، وكان أبو حنيفة النعمان[2]، من أئمة أهل السنة، أول من استخدم مصطلح أهل التوحيد، وهو بذلك قد وضع عقيدة أهل السنة والجماعة فى صورتها الأولى، التى تشهد لأهل السنة بالنظر العقلى فى أمور العقيدة الإسلامية، قال عنه الإمام الشافعى: «الناس فى الفقه عيال على أبى حنيفة»، وقد عرض مذهبه فى كتابه «الفقه الأكبر فى العقائد» وحدد فيه عقيدة أهل السنة تحديدًا منهجيًا، وكذلك وضع الإمام أبو حنيفة النعمان كتبًا أخرى أهمها كتاب «العالم والمتعلم»، وفيه عرض لبعض آرائه الكلامية والسياسية، ثم جاء كتابه «الرد على القدرية» ورسالته إلى إمام البصرة، ورسالة فى الإرجاء.

وقد شرح أبو حنيفة النعمان عقيدة التوحيد الخالص لله كما جاءت فى قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① اللَّهُ الصَّمَدُ ② لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ③ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ④﴾ [الإخلاص]. قال أبو حنيفة: إن الوحدانية لله ليس مقصودًا بها الواحد العددى الذى هو نصف الاثنين، بل هو واحد فرد صمد لا شريك له ولا مثيل ولا عدد ولا يجوز عليه إضافة ولا ولد. وقد تأثر به الإمام الشافعى والإمام ابن حزم فى بيان التوحيد الخالص والتنزيه المطلق.

---

(١) السيوطى، الإتقان فى علوم القرآن، ج٢، ص٥.

(٢) ولد سنة ٨٠هـ، وتوفى سنة ١٥٠هـ.

ومع توحيد أبى حنيفة الخالص لله وتنزيهه المطلق له، إلا أنه أطلق على الله لفظ الشيئية لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ... ﴿١١﴾﴾ [الشورى]، فالله عنده شىء لا كالأشياء أو بمعنى آخر أنه شىء لا تدركه الأوهام أو العقول، وقد تأثر ابن تيمية إمام أهل السنة برأى أبى حنيفة هذا.

وكذلك تناول الإمام أبو حنيفة مسألة صفات الله بالبحث الدقيق، وكان أول من وضع فروقًا دقيقة بين صفات الله وميز بين صفات الذات، وصفات العمل، فقال: إن كل صفة يوصف بها الله، ولا يوصف بضدها، هى صفة ذاتية كالعلم والحياة والقدرة والكلام والسمع والبصر والإرادة، وقد حدد الصفات الذاتية بسبع وسيكون هذا العدد هو العدد الرسمى للصفات الذاتية عند أهل السنة جميعًا.

أما الصفات الفعلية فلا حصر لعددها وهى التى يوصف الله تعالى بها، وبضدها كالخلق والرزق والرحمة فهو يخلق ويميت ويرزق ويمنع، والصفات الذاتية والفعلية هى صفات أزلية عند أبى حنيفة، بمعنى أنها ثابتة فى الأزل غير محدثة ولا مخلوقة. ويرى أبو حنيفة أن من قال بأن صفات الله مخلوقة أو محدوثة أو وقف أو شك فيها فهو كافر عند السلف[1].

يقول الأستاذ الدكتور النشار رحمه الله: «ولم يكد يمضى بعض الوقت حتى ظهر فى الميدان الإمام العظيم محمد بن إدريس الشافعى[2]، ليمثل عقيدة أهل السنة والجماعة، وكان الشافعى فيلسوف الإسلام الأكبر فى الأصول»، وقد وضع القياس الأصولى فى صورته الكاملة، الذى يعد معجزة العقلية العربية المسلمة.

لقد كان الإمام الشافعى أصدق معبر عن روح الإسلام، حينما حاول توضيح مسألة الصفات الإلهية، فالصفة عنده هى الذات، والذات هى الصفة[3]. وذلك حتى لا يكون هناك أى إضافة أو تعدد بالنسبة للذات الإلهية. وقد تأثر ابن

---

(١) د. على سامى النشار، نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام، ص٢٢٦.

(٢) المتوفى سنة ٢٠٤هـ.

(٣) د. على سامى النشار، نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام، ١، ص٢٥١.

حرم بمذهب الشافعى هذا فى الصفات، فرفض إطلاق لفظة صفة، وقال إنها أسماء وهى تعبير عن ذات الله.

وإذا عرضنا للإمام مالك نجده يحارب التكلم فى صفات الله، وينأى عن النقاش فى المسائل التى توهم التجسيم أو التشبيه وموقفه من آيات الاستواء معروفة ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ... ۝١١﴾ [فصلت].

يقول الإمام مالك فى ذلك: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»، فهو يثبت ما جاء بالنص ولكن بلا كيف، أى لا يجوز عنده تحديد كيفية هذا الاستواء، وأن الواجب أن نؤمن بالنص، كما جاء، ولا تسأل عن أمور هى فوق قدراتنا العقلية، هذا هو مذهب الإمام مالك التوقف وعدم الخوض فى المسائل المتشابهة. لقول رسول الله ﷺ: «وما تشابه عليكم فآمنوا به»، تصديقًا لقوله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ۝٧﴾ [آل عمران].

وسار الإمام أحمد بن حنبل[1]، على نفس منهج أهل السنة، التمسك بالنص، ومع ذلك فقد وضع عقيدته الكلامية فى رسالته (الرد على الزنادقة والجهمية)، وقد اعتمد فى رده عليهم على الحجة البالغة والبرهان العقلى الواضح، ومنطلق القرآن نفسه فى مفهوم التنزيه أى إثبات ما أثبته النص دون تشبيه أو تمثيل.

ولذلك كان مذهب الإمام أحمد فى الصفات هو وجوب الإيمان بجميع الصفات التى جاء بها النص ويرى عدم البحث فى حقيقتها، كما يرى أن تأويلها خروج على المنهج الذى وضعه صاحب الشرع، وقد نقل عنه أنه سئل قبل موته

---

(١) المتوفى فى عام ٢٤١هـ.

بثلاثة أيام عن أخبار الصفات، فقال: «تمر كما جاءت، وأتعجب من الإنكار لها، وقد ثبت أن القديم شيء لا كالأشياء، وحي لا كالأحياء، ووردت صفات في الشرع يجب حملها على ما حملت عليه التسمية بكونه شيئًا، فلما فارق اسمه الأسماء، فارقت صفاته الصفات»[1].

وكان الإمام أحمد يرى: «أن الاسم هو المسمى، اتباعًا للنص كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ... ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف]، ولأنها عنده كذلك، فإن ذكرها مع الذات هي الهيئة فهو سبحانه واحد بصفاته»[2].

ومع هذه البساطة في المنهج نلمح بعض الأفكار التي تدل على عمق الرجل في تفكيره، فقد ذهب إلى أن أسماء الباري المختصة المشتقة قديمة، وإن لم يوجد ما تشتق منه، ويقرأ في ذلك ما جاء في سورة الحشر، ولا يفضل بين أسماء الذات المشتقة من الصفات، لأنها غير معتذرة عليه، ولا شيء منها هو عاجز عنه[3].

ولقد تأثر الإمام ابن حزم إلى حد كبير برأي الإمام أحمد في التوحيد بين الصفات والأسماء، غير أن ابن حزم يرفض إطلاق الصفات على الله تمسكًا بقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الصافات]. ويؤكد إن هي إلا أسماء لله كقوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ... ﴿١١٠﴾﴾ [الإسراء].

أما الإمام أحمد فيرى أن الله سبحانه موصوف في الأزل بالقدرة على الرزق والإحياء والإماتة فيما لا تزال، وبفكرة صلاحية الصفة في الأزل للتعلق فيما لا يزال، ينفي التفرقة التي وضعها بعض المتكلمين بين صفة الفعل، من حيث القدم والحدوث. يقول الإمام أحمد في هذا الصدد: «من قال إن الله لم يكن موصوفًا

---

(١) ابن نعيم الحنبلي، عقيدة الإمام أحمد، ج٢، ص٢٦٥، من طبقات الحنابلة.

(٢) المرجع السابق، ص٢٧٠.

(٣) الموضع السابق.

حتى وصفه الواصفون، فهو بذلك خارج عن الدين، ويلزم من ذلك ألا يكون واحدًا حتى وحده الموحدون، وذلك فاسد»[1].

فموقف الإمام أحمد من النصوص القرآنية، التى يوهم ظاهرها التشبيه، أنه لم يؤولها ولم يأخذها على ظاهرها بالمفهوم الإنسانى، بل أخذها كما جاءت دون تعمق أو بحث، وكان يصرح بأن اللفظية شر من الجهمية[2]. أى الذين يأخذون باللفظ كما جاء، يقعون فى التجسيم والتشبيه - تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا. وكان يرى أن الألفاظ التى جاءت فى النص الدينى لها معان مرادة لله، ولا يمكن التعبير عنها، إلا من خلال ألفاظ إنسانية حتى لا يكلف الإنسان بما لا يفهم، ولكن هذا الفهم لا يتجاوز الإثبات إلى تحديد الكيفية، حتى تظل المعانى الإلهية بمعزل عن أن تنزل إلى مستوى المعانى الإنسانية، وعلى هذا فغاية المؤمن فى نظر الإمام أن يثبت - مثلاً - أن لله وجهًا كما أثبت لنفسه، ولكن لا بمعنى الصورة الإنسانية.

أى أن الإمام أحمد يثبت ما أثبته النص لله من صفات، كما جاءت ولا يؤول ولا يعطل ولا يجسم ولا يشبه، فليست هذه الصفات مثل الصفات الإنسانية، لأنها تخص الذات الإلهية.

ولقد كان لهذه المباحث من جانب أئمة أهل السنة أثرها الواضح فى جميع مفكرى الإسلام، سواء أكان هذا التأثير إيجابيا أو سلبيا فالكل آخذ عن هؤلاء وارتوى من فكر عظماء السنة العلماء، الذين تصدوا لأهل الأهواء والبدع من جهمية ومعطلة وخوارج.

أما المسألة التى بحثها الإمام أحمد بالتفصيل، فهى مسألة كلام الله، وكان له موقف واضح فيها: يبدأ أحمد بن حنبل عقيدته بقوله: «الحمد لله الذى جعل فى كل زمان فترة من الرسل، بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى،

---

(١) أبو الفضل التميمى، اعتقاد الإمام أحمد، ج٢، ص٢٩٣، بذيل طبقات الحنابلة.

(٢) ابن الجوزى، مناقب الإمام أحمد، ص١٥٧.

يصدون من هم على الأذى»[1]. وابن حنبل يشير هنا إلى المحنة التى مر بها وعُذِّب من أجلها لكى يحملوه على القول بخلق القرآن فرفض رفضًا تامًّا، وأكد أن القرآن كلام الله غير مخلوق، ومن الخطأ تأويل الآية: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾ [الزخرف]. بأن المجعول هو المخلوق وليس الأمر كذلك، بل جعل هنا بمعنى التسمية كمايرى الإمام أحمد، لأن جعل ممكن أن تفهم بمعنى سمى وبمعنى خلق، والمناسب هنا تكون جعل بمعنى سمى، وقد أورد ابن حنبل آيات كثيرة التى تثبت أن القرآن ليس مخلوقًا فى عبقرية نادرة، كما يقول الدكتور النشار، وإحاطة لا بظاهر القرآن فقط، بل وبمعانيه العميقة، وما وراء المعانى من مفهومات ودلالات.

وينتهى ابن حنبل إلى القول بأن الله إذا قال جعل فإنها تأتى على معنيين؛ معنى خلق ومعنى فعل، ويرى أن جعل فى الآية ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾ [الزخرف]، وقوله: ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥﴾ [الشعراء]، فلما جعل الله القرآن عربيًا، ويسره بلسان نبيه ﷺ كان ذلك فعلاً من أفعال الله تبارك وتعالى.

والقرآن كلام الله أنزله بعلمه وأمره، ولم يسم الله كلامه خلقًا، ولم يسو بين القول والخلق، بل قال: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ... ۝٥٤﴾ [الأعراف]. فوضع تحت له «الخلق» كل شىء مخلوق، ثم ذكر الله الأمر أى القول غير مخلوق، وأمره هو قوله، وقوله هو كلامه، ليس مخلوقًا، لأنه لم يدخل تحت الخلق.

ويناقش أحمد بن حنبل الجهمية فى قولهم: إنهم وجدوا آية فى كتاب الله تدل على أن القرآن مخلوق، وهى قول الله: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ ... ۝١٧١﴾ [النساء]، وعيسى مخلوق. يرد الإمام أحمد على ذلك بقوله: إن عيسى تجرى عليه ألفاظ لا تجرى على القرآن. إن القرآن يسميه مولوداً وطفلاً وصبيًا وغلامًا وكهلاً، يأكل ويشرب وهو مخاطب بالأمر والنهى، ويجرى عليه

(١) أحمد بن حنبل، الرد على الزنادقة والجهمية، ص٣.

اسم الخطاب والوعد والوعيد، وهو من ذرية نوح ومن ذرية إبراهيم (ولا يحل لنا أن نقول في القرآن ما نقول في عيسى). علم يقل الله في القرآن ما قال في عيسى، ويفسر هذه الآية ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ... ﴿١٧١﴾﴾ [النساء] حين قال له (كن) فكان عيسى بـ (كن)، وليس عيسى هو كن ولكن بكن كان، فالكن هو أمر الله وليس أمر الله مخلوقًا.

يقول ابن حنبل: (وكذب النصارى والجهمية على الله في أمر عيسى، وذلك أن الجهمية قالوا: عيسى روح الله وكلمته، إلا أن الكلمة مخلوقة، وقالت النصارى: عيسى روح الله من ذات الله، وكلمة الله من ذات الله - كما يقال: إن الخرقة من الثوب، وقلنا نحن: إن عيسى بالكلمة كان، وليس عيسى هو الكلمة، وأما قول الله تعالى وروح منه، بقول - من أمره، ويفسر روح الله - إنما معناه أنها روح الله - خلقها الله، كما يقال: عبد الله وسماء الله وأرض الله)[1].

لقد انشغل المسلمون جميعًا بمسألة القرآن كلام الله هل هو مخلوق أم غير مخلوق، مخلوق بمعنى أنه نزل على رسولنا ﷺ في زمن معين، وفي مكان معين، وأن حروفه وألفاظه والحبر والورق، كل ذلك حدث بعد أن لم يكن، أم هو غير مخلوق، باعتباره صفة من صفات الله القديمة الملازمة لذاته، لأنه مستحيل أن يكون غير متكلم ثم تكلم.

وتفرقت الأمة الإسلامية، واختلفت حول هذه المسألة اختلافات واسعة، وتشعب الخلاف والكلام، حتى قيل أن كثرة الجدل والكلام حول كلام الله، هي التي أدت إلى نشأة علم الكلام، وقد سمي بذلك نسبة إلى أن مسألة كلام الله كانت أهم المسائل التي بحثها المسلمون، بل وأخطرها. وبسببها نشأ علم الكلام، كعلم له أصوله ومنهجه وموضوعاته ومباحثه، التي خاض فيها المتكلمون المسلمون أساسًا للدفاع عن العقيدة الإسلامية ضد المخالفين لها. يقول ابن خلدون في تعريفه لعلم الكلام: «علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية،

---

(١) أحمد بن حنبل، الرد على الزنادقة والجهمية، ص ٣.

والرد على المبتدعة المنحرفين فى الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة، وسر هذه العقائد الإيمانية هو التوحيد»[1]. أى أن علم الكلام فى نظر ابن خلدون، إنما نشأ للدفاع عن عقيدة التوحيد وإثباتها بالأدلة العقلية، وقد اقترب التهانوى من هذا التعريف بقوله أنه علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية على الغير، بإيراد الحجج ودفع الشبه، وفى اختيار العقائد وإثباتها. وقد ذكر أيضًا الأسماء المختلفة التى تطلق على علم الكلام فهو يسمى بأصول الدين، وسماه أبو حنيفة بالفقه الأكبر، ويسمى أيضًا بعلم النظر والاستدلال، ويسمى كذلك بعلم التوحيد والصفات[2]، أما الإيجى فقد ذهب إلى أن «الكلام علم نقتدر به على إثبات العقائد الدينية، بإيراد الحجج ودفع الشبه»[3]. وذهب ابن حزم كذلك فى تعريفه لعلم الكلام إلى القول بأنه: «من ضمن علوم شريعة الإسلام، ونعنى به ما أجمع عليه أهل الإسلام فى مقالاتهم ومعرفة حججهم وما يصح منها بالبرهان وما لا يصح»[4].

وكذلك حدد الفارابى علم الكلام فى كتابه (إحصاء العلوم)، فقال: «صناعة الكلام يقتدر بها الإنسان على نصرة الآراء والأفعال المحددة التى صرح بها واضع الملة، وتزييف كل ما خالفها بالأقاويل».

أما أبو حيان التوحيدى فقد عرف علم الكلام فى رسالته (ثمرات العلوم)، بقوله: «وأما علم الكلام فإنه باب من الاعتبار فى أصول الدين، يدور النظر فيه على محض العقل فى التحسين والتقبيح والإحالة والتصحيح والإيجاب والتجويز والاقتدار والتعديل والتحوير والتوحيد والتفكير». ومن كل هذه التعريفات نرى أن علم الكلام إنما نشأ أساسًا من النظر العقلى الحر فى النصوص الدينية وبيان مضمونها والدفاع عنها باستخدام الحجة والبرهان وإقامة الدليل.

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص٤٥٨.

(٢) التهانوى، كشاف اصطلاحات الفنون، ص١٢٧، مادة الكلام.

(٣) الإيجى، المواقف، ج١، ص٤٨.

(٤) ابن حزم، مراتب العلوم، ص٧٨.

من ذلك كله يمكننا أن نلخص العوامل التى أدت إلى نشأة علم الكلام فيما يلى:

١- الحرية الفكرية التى تمتع بها المسلمون فى بحثهم ونظرهم العقلى فى النص الدينى المنزل واجتهادهم فى ذلك.

٢- الاختلاف فى الرأى حول المتشابه من القرآن وخصوصًا فيما يتصل منه بمسألة الصفات الإلهية والقدر ومرتكب الكبيرة.

أما سبب تسميته بعلم الكلام فيرجع ذلك إلى عدة أسباب هى:

١- كثرة الكلام فى الشرعيات مع الخصم والدفاع عن العقيدة الإسلامية، ورث المسلمين قدرة على الكلام كما يقول ابن خلدون.

٢- والسبب الثانى يرجع إلى أن مسألة كلام الله كانت من أهم الموضوعات التى حدث الشجار حولها والجدل الكثير بل وسفك الدماء.

٣- أن بحث مسائل هذا العلم كان يبدأ بالقول: «الكلام فى الرؤية أو الكلام فى القدر». أى أن أبواب الموضوعات عنونت بالكلام فى كذا.

٤- والسبب الرابع لهذه التسمية إنما يرجع لما فيه من المناظرة على البدع، وهى كلام صرف وليست برآجعة إلى عمل.

إذن ظهر علم الكلام نتيجة لحرية النظر فى القرآن الكريم، واختلاف المسلمين فى الفكر والبحث والحوار العقائدىّ لهم، وليس نتيجة بالطبع لأى قمع، أو إعاقة للعقل والعلم، كما زعم المستشرقون، إنما كان ثمرة طبيعية للعقلية العربية المسلمة وقدرتها على النظر والبحث فى أمور العقيدة الإسلامية التى أتاحت الفرصة للعقل أن يفكر ويتعقل ويبدع فقدم عطاءً فكريًا عظيمًا، ما زلنا نفخر به إلى اليوم، وسوف نعرض للعقلية العربية المسلمة ونبين قدرتها وأصالتها فى المبحث التالى بإذن الله، لنرد على الافتراء الثانى الذى روج له بعض المستشرقين المتعصبين.